بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الانبار
كلية التربية للبنات
قسم اللغة العربية

الرواية العربية المعاصرة بين التغريب اللغوي والمنجز الإبداعي

ا.م.د.نصرة أحميد جدوع الزبيدي

2011م/1432هـ

المدخل

لاشك في أن فن الرواية بوصفه فنا أدبيا حديث النشأة مقارنة بغيره من الفنون الأدبية الأخرى لاسيما الشعر ويمثل احد أهم تلك الفنون في العصر الحديث,وبالتأكيد فقد احتل مكانا متميزا بين الفنون الحديثة وهي أول نوع نثري سردي تبرز بشكل خطاب موجه يحدث مفعولا جماليا بفضل استعمال بعض المحسنات**(1)** ولأنها باتت فن العصر الحديث وابرز علاماته الأدبية فقد افترق

مفهومها الحديث عن القديم ,ويميز المعجم الأدبي بينها وبين القصة بكونها حديثة العهد في الآداب العالمية بمفهومها العصري في حين إن القصة قديمة العهد ,فهي فن شامل يصعب رسم حدوده في كلمات معدودة لأنها نوع مختلق متخيل من السرد مؤلفة من عناصر وهمية أو واقعية وتعنى بموضوع الإنسان والأدب أي الإنسان والعالم(2)كما أنها نمط سردي يرسم بحثا إشكاليا يقيم حقيقة لعالم متقهقر عند لوكاش وكولدمان,وعند جوليا كرستيفا هي الطابع المشابه لوحدة العالم التي لا تكون حدثا بل هدفا يقتحمه عنصر ديناميكي**(3)** ,وقد سارت جنبا إلى جنب مع التحولات الكبرى في المجتمعات الغربية التي نشأت فيها,وبالنسبة للعرب فإنها قد أخذت هذه الوظيفة حالما هضمت وتعرفوا إليها وبدؤوا يخرجون من عباءة التقليد للفن المستورد الذي لا يعدمون له أصولا مفترضة عندهم (في طبيعته القائمة على السرد القصصي على الأقل مما نجده في المسامرات والمقامات وغيرها من الفنون الأدبية القديمة)فنشأت الرواية العربية بسماتها التي تحاكي المجتمع العربي والعقلية العربية ,والحقيقة إن التغير الكبير الذي أصاب العربية في العصر الحديث إنما يمتد إلى بواكير النهضة الحديثة مما أصاب ألفاظها وتراكيبها من تغير مصدره اللغات الأجنبية فيما تولد جزء منها بالتنوع والتفرع حين ظهرت الحاجة إلى ذلك **(4)** ولاشك في أن للأدب وظيفة كبرى في هذا التغير لأنه روح اللغة ولأنه الميدان الذي يبرز فيه كل تغير يحصل فيها كما إن للفنون الأدبية والأفكار والموضوعات الجديدة أثرها الواضح في ذلك,ساعد على ذلك وسائل انتقل بوساطتها التأثير من لغات أخرى ومنها البعثات والترجمة للأعمال الأدبية والتاريخية وغيرها إلى جانب الانفتاح الحضاري والفكري على الأمم والشعوب وهو أمر ايجابي رفد العربية بالألفاظ والمفردات الجديدة من جانب وأكد قدرتها الفذة على الاستيعاب والتطور ومواكبة العصر من جانب آخر.

وقد تصدرت الرواية بوصفها شكلا نثريا حديثا الأنواع الأدبية التي شاعت في العصر الحديث واستولت على المكانة التي كان الشعر يحتلها من خلال تزايد حجم الإنتاج الروائي وتفضيل الناشرين للرواية على غيرها استجابة لطلبات التوزيع ,إلى جانب الطابع الحداثي(التغريبي على وجه الخصوص) الذي ابعد الشعر عن القارئ

العربي وبدرجة اقل بكثير الرواية التي تحولت إلى فن شائع وقريب لا يختص بنخبة عن سواها ,وهكذا نجد كما ضخما من النتاج الروائي في العقود الأخيرة يسعى إلى التمسك بالحد الأدنى من الخصائص الفنية التي تحقق قدرا أدنى من التفاوت الحدثي والنمو البشري للشخصيات واللغة الحياتية العمق في مظاهر الأشياء والربط بينها ربطا يقود القارئ إلى الإحساس بأنها تجربته الخاصة**(5)**إلى جانب السحر الذي تحمله الرواية لبساطتها وقربها من النفس الإنسانية وطرحها للقضايا العامة في إطار شخصي يدفع القراء إلى التفاعل معها الأمر الذي زاد الإقبال عليها ومن شتى الشرائح والأعمار,إلى جانب التحول الكبير الذي أصابها اثر ظهور التلفزيون والسينما وتزايد الإنتاج الدرامي الذي نقل إلى شريحة واسعة جدا من الناس الرواية مجسدة على ارض الواقع محتفظة بالكثير من سماتها على الرغم من التغير الكبير الذي كان يصيب لغتها أحيانا,إذ تعتمد العامية أو اللغة القريبة من الناس وبدرجات متفاوتة لنقل أحداثها,من هذا المنطلق تمثل الرواية بوصفها فنا نثريا وسيلة جيدة لحفظ اللغة ونقلها وان كانت قد انحرفت عن مسارها بسبب اللغة التي تكتب بها لاسيما في الرواية الواقعية ومنها روايات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس**(6)** والمؤكد أن الأربعينات والخمسينات والستينات قد عرفت ذروة النتاج الروائي التقليدي الذي يقتدي بالغرب ويقايس النثر القصصي والروائي العربي على مثال صورته في الغرب كما هو الحال عند طائفة كبيرة من الروائيين العرب من شتى الأقطار العربية والانعطافة الكبيرة في السبعينات استجابة لظروف التطور الموضوعية والتاريخية التي فرضت نفسها على مسار حركة تطور الثقافة العربية فظهر التجريب والتحديث وتشكلت مذاهب أدبية جديدة في فنن القصة والرواية أفرزت نتاجات فنية تفاوتت في تبعيتها بين التأصيل والتبعية**(7)**على إننا يمكن أن نحدد الأسباب التي مكنت الرواية من القيام بوظيفتها اللغوية إلى جانبي الوظيفة الفنية الإبداعية بالنقاط الآتية:

1- سهولة الألفاظ والتراكيب بحكم مخاطبتها لفئة واسعة جدا من القراء ذوي الميول والأفكار والثقافات المتنوعة ولأنها معنية بإيصال التجربة الشخصية

والإنسانية في منظورها العام فإنها كتبت بأسلوب سلس يقترب من اللغة المحكية مكنها من ذلك الحوار الذي يمثل هيكل السرد ودعامته الأساسية.

2- قرب الرواية من الإنسان لا لكونها فنا أدبيا تعبيريا وحسب بل لأنها تحولت إلى فن الشعب لمسايرتها الأحداث الكبرى المؤثرة في حياة الناس بصورة مباشرة.

3- أنها وريثة تاريخية لقرون الريادة الشعرية الفذة التي مثلت أساسا ومنطلقا فنيا ,وقد تأخر ظهورها بشكلها الفني الذي نعرفه بتأثير الآداب الغربية واتصالنا بها .

وإذا عدنا إلى البداية الحقيقية التي يعدها الباحثون نقطة انطلاق القصة الحديثة وجدناهم يجمعون على إن (زينب) لهيكل هي أول عمل قصصي بالمعنى الفني ويرى فيها محمود تيمور عملا واقعيا يهبط بالقارئ من سماء الخيال إلى عالم الواقع الذي نحيا فيه**(8)**ومن هذه النقطة بدأت اللغة الروائية تتحرر من التكلف والصنعة وبقية مظاهر الأسلوب واللغة التي كتب بها مجمل الشعر العربي في عصوره المتأخرة وتحديدا في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ,من هنا كان للرواية والقصة إسهامها الكبير في إحداث تغيير ملموس في اللغة الأدبية عاد بها إلى بساطتها المألوفة المحببة ,وهو أمر يحسب للرواية بوصفها فنا أيا كانت الآراء حول أصالتها وتجذر أصولها في التراث الأدبي العربي القديم لاسيما فن المقامة وبين كونها فنا مستوردا جاء نتيجة الاتصال بالغرب.

وهناك مسارات ثلاثة يمكن من خلالها البحث في موضوع اللغة الروائية والإبداع وتأثير العوامل الجديدة عليها وهذه المسارات:

أولا/اللغة الروائية والعوامل المؤثرة في بنائها

اللغة هي العنصر الأساس في بناء الرواية وتشكيل عالمها الفني إلى جانب العناصر الأخرى كما إنها الوعاء الذي يصب فيه الروائي أفكاره ويجسد رؤيته الخاصة من خلال استعمال مفردات وتراكيب وأساليب متنوعة إيحائية

انزياحية ورمزية أو تعبيرات تناصية ,كما إنها هي التي تجعل من الرواية فنا متميزا وتختلف عن بقية مكونات الخطاب الروائي لأنها القالب الذي يحمل إلى المتلقي الفكرة أو العاطفة أو الجمال(9) ولاشك في أنها أيضا تجتاز سمة الكلام المكتوب والمنطوق لترتفع إلى مستويات إبداعية مادتها اللغة التي كتبت بها, ولغة برقي العربية هي ميدان للتعبير والتوصيل استوعب طبيعة التشكيل الفني للرواية بوصفها فنا أدبيا له خصوصيته القائمة على بناء سردي محكم يقدم رؤية وبعدا يتجاوز النقل الجامد للمواقف والأحداث التي تعالجها,من هنا يصبح من غير الممكن وضع تحديد يحصر معنى اللغة الروائية بشكلها الحالي,ويشير د.عبد الملك مرتاض في هذا الصدد أن لا احد من النقاد والمنظرين العرب قد عني بها وافرد لها بحثا قائما وحتى النقاد الغربيين على كثرة عنايتهم بالسرد وتفاصيله الدقيقة فإنهم قد عنوا بالشخصية والحيز والمكان والحدث أكثر من عنايتهم باللغة لاسيما ي كتاباتهم النظرية الخالصة. **(10)**

إنَ الرواية بهذه الموصفات التي تجعلها فن العصر القريب من القراء على اختلاف مستوياتهم لابد أن تكون مكتوبة بلغة تحقق كل الأهداف التي كتبت لأجلها بدءا من الإبداع الفني وانتهاءً بالتوصيل بوصفه غاية كل رسالة أو نص,ويجعلنا هذا الأمر في مواجهة كينونة تلك اللغة وماهيتها وكيفيتها وما مستواها ووظيفتها وصفتها ؟وما علاقتها بما يضطرب في الرواية من أحداث؟

ومابين اللغة الأدبية في النص واللغة المتداولة(السليمة التي يفهمها سواد المتكلمين) مسافة فالانزياح هو الذي يحكم اللغة الأدبية في حين أن الدلالة الواقعية البسيطة أو العميقة هي التي تحكم اللغات الوظيفية بوجه عام.**(11)**

وبالتأكيد فان اللغة تتعدى في أهميتها كونها جسدا للنص الأدبي ذلك لان الإبداع الشخصي لكاتب ما هو المسؤول عن بناء أجزاء هذا الجسد وبناء الجمالية الخاصة به ,والرواية في هذا الصدد تشبه اللغة لأنها بناء مع تفوقها عليها في موضوع كونها بناءا جماليا يحمل هدفا فنيا بتشكيل خاص يفترق عن التشكيل الشعري مثلا مع احتفاظها بصفة الشعرية التي تعنى بالأشكال الأدبية عامة ولا

تقتصر على(الشعر) كما يدل على ذلك لفظها حيث أن النتيجة الفنية للغة تضع في العمل شعرية**(12)**مع إن هناك من يصر على تأكيد كونها (نثرية) وان السرد الروائي نثري أي مكتوب نثرا حتى وان كتبت شعرا فإنها تقترب إلى النثر باستعمال لغة دارجة كونها تواجه الروح الإنسانية بالمظاهر الأكثر دقة وأنها تبين مقاومة الوقائع والأشياء للأفكار والمثل,(13) إلا إن ذلك لا يعني تعارضها في لغتها التي بنيت بها وليست التي تحكى بها مع مفهوم (الشعرية)بمغزاها الأدبي الذي لايزال ملتبسا عند الباحثين والنقاد العرب لكونه مفهوما فضفاضا على حد تعبير احدهم**(14)** وإذا لم تكن لغة الرواية شعرية أنيقة رشيقة عبقة مغردة مختالة...لا يمكن إلا أن تكون عليلة ذابلة لأنها أساس الجمال في العمل الإبداعي.**(15)**

وكل شيء في اللغة الروائية محسوب يتحكم فيه المعنى لا في الحوار والسرد فحسب بل في كل ما هو مكتوب في النص بما في ذلك الحركات والسكنات والعلامات الكتابية التي تحدد دقائق المعنى,فالخطاب الروائي على سبيل المثال قد ادخل مختلف وظائف اللغة عند بناء اللغة الروائية سواء في تعددية الأصوات داخل النص والحوارات واستخدام الأسلوب المباشر الحر القائم على كلام الشخصية نفسها واستعمال صيغ ماضية واللجوء إلى الضمائر **(16)**وهكذا فاللغة الروائية هي إعادة تشكيل للغة التي كتب بها النص ,يقول احد الباحثين(عندما يكون النص إخبارا تكون لغته أداة وعندما يكون إبداعا تكون لغته خبره الذي ينقله ويكون هو أداتها ,واللغة عندما تكون كذلك فان مضمونها المعماري يستهلك مضمونها الإخباري ويتجاوزه إلى ميدان آخر يصبح عملها فيه ليس الإيصال فقط ولكنه الخلق أيضا)**(17)**وهكذا فان النص الأدبي الروائي هو إعادة إنتاج للمعنى عن طريق إعادة تشكيل اللغة من مفرداتها وعباراتها نفسها,وإذا عدنا إلى الحوار بوصفه شكلا لغويا آخر داخل النص يفترق عن بنائه السردي القائم على الإخبار والوصف والتصوير لوجدنا انه يمثل الخاصية الجوهرية للغة الرواية التي هي في الأصل نظام لغات تنير أحداها الأخرى على حد تعبير احد الباحثين

(18),ولاشك في انه يقصد باللغات هنا الأساليب ومفهوم الأسلوب في الرواية يرتبط بجملة من الخصائص التقنية التي تقترب من مفهوم النمط السردي بالابتعاد عن السطح اللغوي المباشر للنص الذي يمنح اللغة دورا وسيطا في الرواية وتقوم بتثبيت مفردات الدلالة وبناء هيكل المعنى الكلي للنص وتنظيم عمليات التصوير والرمز لكي لا يصل النص إلى مستوى من التدني والعادية الذي يسمح لكل راوٍ أن يؤديه بكلماته وعلى طريقته كما يحدث في الحكايات اليومية التافهة**(19)**كما إن لغة الروائي فيها عناصر تميز الاتجاه الفني والأدبي الذي ينسب إليه مثلما أن لغة الرواية هي لغة الأسلوب الفردي للروائي إلى جانب كونها (أي الرواية)جنس بلاغي يتم تحليل وسائلها وطرقها من وجهة نظر فعاليتها البلاغية وهذه النقاط هي من أشكال الخطاب الروائي الخمسة التي حددها باختين .**(20)**

إن التطور الحاصل في التقنيات السردية لم يقلل من مكانة اللغة الروائية في عملية البناء الفني اعتمادا على منجزات التعبير بالصورة من خلال وسائلها المتنوعة الذي انتعش في القرن العشرين إذ أن الكاتب لم يعد يتوجه إلى قارئه بالإسهاب والتفصيل المعهودين قدر حاجته إلى توصيل ما يريد بأقل عدد من الكلمات(المنتقاة),كما إن التعبير الأدبي قد استفاد من مختلف تقنيات اللغة السيميائية التي تركت أثرها على ثقافة الكاتب والقارئ معا**(21)**,من هنا فان الرواية تبقى منجزا كلاميا يرسم حيث لا وسيلة غير اللغة للرسم مهما اختزلت الكلمات ومهما تنوعت طرق التوصيل ومناحيه.

وللغة الرواية مستويات تراعي التنوع الفكري والاجتماعي للشخصيات, وهذه النقطة من سمات الخطاب الأدبي لم تكن جديدة, إذ سبق إليها العرب بقرون ,وليس أشهر من مقولة الجاحظ حول أقدار الكلام على أقدار المقامات**(22)**ومثله السيوطي الذي كتب عشرين مقامة موزعة على عشرين شخصية**(23)**ولابد أن نميز هنا بين التنوع الأسلوبي الذي يفرضه تنوع لشخصيات وبيئة الحدث وبين تنوع من نمط آخر تفرضه القدرة على التصرف باللغة واختلاف الكتاب في طرق التعبير عن الأفكار وزوايا النظر إلى الحدث وجزئياته والفلسفة التي يتبناها

الكاتب إلى جانب كونه يطرح قضية عامة من منظور شخصي ,وهنا تبرز اللغة بوصفها وعاءا للإبداع ويبرز الروائي بوصفه حرا فيما يختار طالما أنها متاحة للجميع,بل إن اللغة تحقق ما يعجز الكاتب عن التصريح به علنا لأسباب خاصة من خلال الإيحاء والرمز لاسيما في المكتوب السياسي المضاد,وهنا تدخل اللغة في مستوى أعمق يتجاوز المستوى السطحي التعبيري المباشر وهو أمر مرتهن بتطور تقنيات القص وعمق ثقافة الكاتب نفسه,وحتى لا تغترب النصوص الأدبية لابد أن تظل تلك الارتحالات الأسلوبية تدور في فلك اللغة التي كتب بها النص, ولا يعفي استعمال الأقواس وعلامات الاقتباس للكلمات الخارجة عن لغة النص العامية والأجنبية منها على السواء الكاتب من مسؤوليته,فهناك دوما حلول وسطى تجعله يمسك العصا من الوسط فلا يفرط بهوية اللغة التي كتب بها ولا يضيع فرصة الاستفادة من المنجز الإبداعي الأجنبي طالما إن الغرب قدم لنا الرواية ومدارسها وكل ما يتعلق بها,ويرى احد الباحثين إن ارتفاع مستوى عن مستوى آخر من اللغة في العمل السردي بعامة والعمل الروائي بخاصة لا ينبغي أن يفضي إلى الانفصال عنه بل يجب اتصال المستوى اللغوي بالمستوى اللغوي الآخر وتولج المستوى في المستوى من غير أن يحس المتلقي بذلك الانفصال والاختلاف إذا وقع,لأننا نفترض انه لم يقع كما هو الحال في تمازج الألوان وتناسقها في لوحة فنية. **(24)** وعموما فان هناك مجموعة من العوامل التي تؤثر في اللغة الروائية يمكن أن نعدد منها ما يأتي:

1- ***ما يتعلق بالكاتب :***

ويندرج تحت هذا المسمى عوامل تتعلق بثقافة الكاتب الأدبية ودرجة اعتناقه للغة التي يتكلمها,إذ إن كثيرا من الكتاب لا يملكون ذخيرة لغوية كافية تجنبهم العبث باللغة فيما يقدمون من نصوص ومنهم يحيل عمله إلى خبير لغوي لتدقيقه وأكثرهم لا يكترث لهذا الأمر معتبرا نفسه فوق مستوى الخطأ حتى شاعت أعمال كثيرة ركزت على المضامين والتلاعب اللفظي الذي سحر النقاد وإلهاهم عن افتقادها لشروط

جوهرية للنجاح حتى وان كانت تحمل ترميزا معنويا يلمح إلى فلسفة ما ولا يصرح بها مما عد معيارا لقبول العمل والإعجاب به,مع إننا نجد نصوصا التزمت باللغة الفصحى تنتمي إلى مستوى الإبداع المثير للإعجاب والتقدير واحتلت مكانة متميزة يكمن السبب في ذلك إلى قدرة الكتاب وثقافتهم الحياتية والأدبية والاجتماعية إلى جانب الأداء اللغوي السليم وقدرتهم على تحقيق تناغم واضح بين أجزاء النص وتحديدا بين السرد والحوار ليجد القارئ نفسه إزاء نص يمتاز بالعمق والسلاسة التي تحاكي ميول السواد الأعظم من القراء وثقافتهم ,وليست الأفكار التي نجح كاتب(موسم الهجرة إلى الشمال) في رسمها حول مشكلة اللقاء بين الشرق والحضارة الأوربية**(25)**وكذلك الحال مع أعمال أخرى, تقول يمنى العيد(فنحن مع "التيه " لعبد الرحمن منيف مثلا أمام نص إبداعي يشكل فاصلة هامة في سياق سردنا الفني العربي ,انه نقله نوعية,شكل فني لمنطوق الناس في تعدده واختلافه وفي تفاوته وتناقضه,شكل ينهض من موقع يتسع مدى منظوره فيطرح سؤاله حول معنى الديمقراطي في الفني الأدبي,ونحن مع نص الياس خوري أمام تجربة تستأهل الدراسة لما لها من ارتباط بالمسألة الثقافية ,أو بديمقراطية الموقف في اللغة العربية,هكذا يصل خوري إلى إقامة بنية اللاموقع مثيرا سؤالا حول معنى الديمقراطية في العمل الذي يصوغ)**(26)**

ومابين مقولة إن العمل هو صورة عن مبدعة وصورة تجعله متجردا منه وتقول بموته واختفاء المؤلف وراء إحدى شخصياته كانت فكرة مسيطرة على جمالية الرواية المعاصرة وكانت أساسية في الكثير من الأعمال الرائدة في مقدمتها أعمال الروائي المعروف جيمس جويس وأصبحت مشكلة الرواي في النص وطبيعته ومكانته والمعنى الذي يعطيه مادة للكثير من المؤلفات في هذا المجال**(27)**

2- ما يتعلق ببيئة إنتاج النص:

وتتعلق هذه النقطة بالإطار الزمني والاجتماعي الذي كتب فيه النص وليس هناك معيار يحدد جودة نص اعتمادا على توجهه ,ويؤكد احد الباحثين على إننا بوصفنا قراءً ننتظر من الرواية أن تكون سردا تاريخيا يراهن بالصور أي ليس

بالشخصيات فقط ولكن أيضا بمختلف أشكال الوجود في المجتمع ومختلف لغاته,وان الرواية تمثل شكلا من العقلية الجماعية يكون الزمن بالنسبة إليها هو حقيقة الحقائق. **(28)**

ومع تتابع الزمن نلاحظ ازدياد الاهتمام بالشكل الفني محاكاة للتغير الذي تشهده الحياة والتسارع الحضاري الذي غير وجه العالم وكذلك التحليل السردي استجابة للأفكار التي جاء بها رولان بارث وتودرورف وغيرهم **(29)**فبارث يركز على قضية اللغة بقوله:إن الأدب يمثل سيادة اللغة وهي وجوده ,في حين يرى تودوروف إن كل ما يفعله الكاتب هو قراءة اللغة بمعنى إن الأدب هو حديث عن اللغة نفسها وهي في الأدب لاتكون وسيلة اتصال كما هي بل هي وسيلة تعبير**(30)**

ثانيا/الظواهر المؤثرة في اللغة الروائية

1- ظاهرة العامية :

تعد مشكلة العامية واحدة من أهم القضايا التي شغلت الباحثين واللغويين على حد سواء وذلك على الرغم من كونها أساسا ظاهرة شاذة لايمكن أن تكتسب الشرعية في الاستعمال تحت أي ظرف طالما تنصلت من قواعد سلامة اللغة ,ومع بدء الاحتلال الأجنبي للأرض العربية لاسيما في القرن الماضي وجدنا دعوات تتعالى هنا وهناك تنادي باعتماد العامية وهي في أكثرها دعوات مشبوهة حاولت

النيل من العربية وطمسها بإدخال العامية في نظامها القواعدي والمفرداتي ,وإلفنا طائفة من الجهود التي حاولت التقريب بين العامية والفصحى وسعت إلى حصر مفردات العامية في معاجم على غرار معاجم العربية الفصحى ومحاولة إرجاعها إلى الأصول الفصيحة وتركز جهدها حول لهجات معينة تبعا لبلد المؤلف على نحو ما نجد في مصر مثلا في جهود حسن توفيق ومحمود تيمور وشوقي ضيف وغيرهم**(31)** هذا إلى جانب بعض الجهود التي أولت العامية عناية لا تستحقها في مقدمتها الكتابات المكتوبة باللغة العامية وتحديدا في القرن التاسع عشر متمثلة بمقالات عبد الله النديم الذي يعدونه احد قادة الفكر العربي تحت شماعة الحاجة إلى ايقاض الوعي العربي الشعبي الإصلاحي لاسيما في مجلتيه (أبو نظارة1878,التنكيت والتبكيت1881)ودعوة احمد أمين إلى تلقيح العربية بالعامية وإدخالها في الأداء الأدبي في كتابه(فن القول) ,ومع ذلك وجدنا من ينادي بتدقيق العامية ودراستها لأنه يرى فيها منبعا للألفاظ التي تعيننا على مسايرة التطور الحاصل فيرى أن الفصحى اكتسبت ضروبا من التطور مع مرور السنوات من خلال معاشرة الأمم الأخرى وضروب التجارب والتغير ومن غير الممكن استبدالها بلغة هجينة تبعدنا عن منابعها ونقطع ما بيننا وبين التراث الفكري وان لا خير في أية دعوة إلى إحياء العامية ونشرها مهما كانت الأسباب غير انه يرى ضرورة دراستها ومعرفة أسسها قواعدها التي تربطها بالفصحى ولهجاتها للاستفادة منها في رفد العربية بالمفردات المعبرة عن البيئة الجديدة والحياة الجديدة.**(32)**

وليس لكاتب عذر في اللجوء إلى كتابة الحوار باللغة العامية مهما كانت مبرراته طالما أمكنه أن يكتب بلغة سليمة وطالما انه لا توجد عوائق تحول بينها وبينه ذلك لان الحوار أصلا يصلح للتقديم المباشر للكلام ويمكنه أن يكون مسرحيا ينتمي للدراما أو أن يكون نوعا وسيطا معزولا بعلامات كتابية ومدمجا في النص القصصي بأسلوب فقد يكون بأسلوب مباشر أو غير مباشر أو غير مباشر حرٍ في طابعها استنادا إلى علامات كتابية ونحوية**(33)** ولم نسمع أحدا من الباحثين يقول انه لايمكن كتابته إلا باللغة العامية مثلما لم يحض احد في هذه النقطة والتعامل

معه على هذا التحديد والتعريف يكشف بوضوح عن تنوعه واستجابة اللغة السليمة لطبيعته من خلال الاعتماد على أساليب كتابية ونحوية تنقل الحالات المتنوعة للمتحاورين,وبما إن اللغة الروائية تقوم أصلا على تحويل البنى النحوية للغة الجارية التي كتبت بها **(34)**فهذا يعني إن من الممكن إن كتابة النص الروائي بلغة موحدة وان ليس هناك من داع حقيقي لخرق نسق النص الروائي وتركيبته اللغوية والأسلوبية بثغرات العامية مهما كانت المبررات التي يختلقها الكاتب لذلك, يقول د.عبد الملك مرتاض:(إن النظريات النقدية التي تنظر للرواية والتي تلقيناها في محاضرات الجامعة خلال الأعوام الستين من القرن العشرين كانت تقوم إجراءاتها على أن يستوي الكاتب الروائي في مستويين اثنين من اللغة على سبيل الوجوب,مستوى السرد وتكون لغته فصيحة سليمة بل راقية ومستوى الحوار وتكون لغته عامية متدنية وان تلك الآراء المغلوطة ربما تكون هي المسوغ لانطلاق بعض الكتاب في تجاوز اللغة السليمة البسيطة وان تل الظاهرة التي شاعت ليست مقتصرة على العربية وحدها بل إن الكتاب الفرنسيين من أمثال بلزاك وهيجو قد نادوا مرارا وتكرارا بالوقوف أمام ظاهرة شيوع العاميات الفرنسية وطغيانها على لغة النص الأدبي حتى جاء مارسيل بروست وحاول قياس اللغة على قدر الوضع الاجتماعي للشخصية وهكذا بين جدل الفصحى والعامية تراوحت الأفكار والآراء إلا إن من الصواب أن تسلم لغة الرواية من أي اثر عامي حتى على مستوى الحوار حتى وان كانت البيئة الاجتماعية والبشرية التي تدور فيها أحداثها ذات طابع شعبي عامي في لغته يقول احد الباحثين(إن الكتابة الروائية عمل فني جميل يقوم على نشاط اللغة الداخلي ولاشيء يوجد خارج تلك اللغة ,وإذا كانت غاية بعض الروائيين المعاصرين العرب هي أن يؤذوا اللغة (ليس بالمفهوم الفني ولكن بالمفهوم الواقعي)بتسويد وجهها وتلطيخ جلدها واهانتها بجعل العامية لها ضرة في الكتابة..فلم يبق للغة العربية إلا أن تزم حقائبها وتمتطي ركائبها ...وأمام كل هذا فإننا لا نقبل باتخاذ العامية لغة في كتابة الحوار ونؤثر أن يترك للغة الحرية المطلقة لتعمل بنفسها عبر العمل الإبداعي

..وإنا حين نتحدث عن اللغة لا نستطيع الحديث عنها إلا على أساس أنها كائن اجتماعي حضاري ينمو ويتطور بتطور المستعمل وبتطور الثقافة والمعرفة لدى المتلقي أيضا) **.(35)**

وهناك قضية مهمة في هذا الجانب وهي إن العربية وكغيرها من اللغات تنطوي على عدد من اللهجات تبعا للبيئات التي توجد فيها ففيها المصرية والعراقية والمغاربية وغيرها وكل واحدة منها تتفرع إلى لهجات ثانوية لها خصوصيتها الجغرافية والبيئية وقد تتباعد المسافات بين الدلالات والمعاني تباعدا يضع حدودا مصطنعة لا حاجة إلى متكلم العربية بها تجعل من مسالة فهم الحوار المكتوب بالعامية مشقة حقيقية تضيع معها متعة القراءة وتحري مواطن الجمال الكامن في اللغة الروائية التي تميز كاتبا عن آخر,وفي هذا الصدد هناك أمور عديدة لابد من النظر إليها في هذا الجانب ومنها:

1- إن الرواية فن لغوي تكمن الإجادة في جزء كبير منه على الصياغة وجمالية الأسلوب السلس المعبر الموحي إلى جانب القضايا الخاصة والعامة التي تطرحها .
2- لثقافة الكاتب الروائي اثر كبير في بناء نص متكامل يقترب أو يبتعد من اكبر عدد ممكن من القراء تبعا لطريقة تعامله مع لغة الكتابة الروائية.
3- إن العامية إذا ما استمر اعتمادها لغة للحوار القصصي في النص تقف عائقا أمام فرص انتشار النص عالميا عن طريق ترجمة الأعمال الروائية إلى عدد من اللغات الحية لتوسيع الانتشار جريا على عادة الروائيين ودور النشر هذه الأيام.
4- ويتبع النقطة السابقة خطر العامية على اللغة العربية المعروف من خلال تقسيمها تقسيما قد يجر إلى نتائج كارثية إذا ما تبع ذلك مسايرة حالة التشرذم السياسي القائمة أصلا بين أهل العربية.
5- يتيح الاستخدام المفرط للعامية حالة من الفوضى اللغوية تدفع إلى شيوع المفردات السخيفة والمنحطة التي تصل إلى درجة تخدش الحياء وتؤذي

السمع وتشيع بدورها ثقافة الغلط والانحدار وتبررها طالما ان الكاتب يبقى محتفظا بمكانته الاجتماعية التي تتيحها له البيئة الثقافية التي تجعل منه فردا من أفراد النخبة في مجتمعه.

وبهذه المفاهيم لابد من التأكيد على إن السحر الذي يتوهمه بعض الكتاب في العامية هو ادعاء فارغ حتى وان كانت مسؤولة عن إنتاج مفردات لغوية معبرة تؤثر في المتلقي بشكل أعمق لان ذلك الأمر نتج عن العادة السيئة في كثرة الاستماع إلى العامية والكلام بها وتداولها على حساب اللغة السليمة,وهي مسؤولية تتحملها وسائل الإعلام المسموعة والمرئية تحديدا لكونها تصل إلى الأغلبية الساحقة من الناس في المجتمعات لاسيما العربية منها,ولابد من التأكيد على نقطة مهمة تتعلق بالمنجز الروائي العربي الحديث والمعاصر وهي ضرورة الحرص على عدم توسيع الفجوة الفكرية والثقافية بين الكاتب والقارئ من ناحية واحترام عقلية هذا القارئ من جهة أخرى لان العامية في حوارات النصوص الروائية بحد ذاتها استخفاف بعقلية القارئ ودفع متعمد له إلى مرتبة أدنى من النص إلى جانب كونها تعيق ترجمة العمل الروائي ودراسته لاسيما إن كان الحوار نقطة أساسية في العمل يعول عليه الكاتب في نقل الأفكار الأساسية ورسم ملامح الشخصيات وفلسفتها الخاصة.

2- الترجمة :

تمثل الترجمة إحدى الطرق المهمة التي ساهمت في التلاقح الحضاري بين الشعوب ولغاتها المتنوعة مثلما أنها مثلت وسيلة لنقل التأثيرات والتيارات والحركات الأدبية ,وكان من أهم انجازات الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية في مجال الأدب انتقال فن الرواية بشكله الحديث إلى العرب , فبعد أن تخلص الأدب القصصي العربي من آثار التقليد للقصة العربية القديمة بشكلها البدائي المتمثل بالأسمار والقصص القديمة والأخبار والمنادمات التي كتبت عنها دراسات حديثة درست تراثها الأدبي المكتوب أحصاها احد الباحثين وبين آرائهم فيها **(36)** وقبل

ذلك كانت الترجمة احد الطرق المهمة التي أسهمت في تلاقح الحضارة العربية مع الحضارات الأجنبية وفتحت الباب واسعا إمام التأثيرات بشتى أشكالها والتي بدأت على نطاق محدود في العصر الأموي واتسعت بشكل كبير في العصر العباسي**(37)** وبالنسبة لجدل النص المترجم ولغته فمن المؤكد إن الحديث في هذا الباب طويل ,اذ برزت جملة من الصعوبات والعوائق في النصوص الأدبية المترجمة لاسيما بين العربية والانكليزية والفرنسية فضلا عن إشكاليات الترجمة في مجال اللسانيات واللغويات المعاصرة التي دفعت إلى ترجمة العديد من معاجم المصطلحات وتأليف طائفة منها يظهر فيها الاختلاف الواضح في درجة دقتها في فهم خصوصيات اللغات المنقول منها وربما كان السبب في ذلك كما يرى احد الباحثين إنها تمت بطريقة عشوائية فردية بحيث يقترح كل باحث بشكل فردي قائمة المصطلحات دون أن يعتمد في ذلك طريقة علمية مدروسة معتمدا حدسه الشخصي والرجوع إلى المعجمات اللغوية التي لا تقدم سوى جانب محدد من الكلمة **(38)**

وبالنسبة للنص الأدبي والروائي على وجه الخصوص فلترجمته قواعد خاصة طالما إنها تقوم على أساس المحاكاة التي تراعي المعنى والأسلوب وتبتعد عن الحرفية التي تجزيء المعنى وتذهب بنظامه, فهناك روايات كثيرة تتميز بتعدد مستويات اللغة الأمر الذي يحتاج إلى مترجم متمرس ,ومن الأمثلة في هذا الجانب رواية(الصخب والعنف)لفوكنر التي ترجمها جبرا إبراهيم جبرا التي تنوعت حتى في لهجات شخصياتها بين الجنوب الأمريكي ولهجة الزنوج مما شكل تحديا مضافا أمام المترجم فعمد جبرا إلى ترجمة باللغة العربية الفصحى ما وجده بالانكليزية المعروفة ما يعني انه ترك ما مكتوب باللهجات التي لا يعرفها أو التي لم يجد لها معان في المعجمات,ينعكس لا على قيمة النص المترجم الأدبية بل على قيمته الفنية على اعتبار أن النص المترجم سيكون مرجعا يعتمد عليه الأديب المتأثر بأدب فوكنر وغيره ,ومع ذلك ومهما كانت براعة المترجم وإلمامه يظل النص بلغته الأصلية ارفع بكثير من النص المترجم لان إبداع صاحبه كان في اللغة الأصلية التي كتب بها,من هنا لا يؤاخذ المترجم لا إن عمله يفاضل مع

ترجمة أخرى للعمل نفسه من حيث جودته وقربه من النص الأصلي**(39)**والترجمة لا تكون مجدية ومؤثرة إبداعيا في أي أدب من الآداب إذا فقدت التوازن المطلوب بين المتطلبات الثقافية بين الأدب المترجم له والآخر المترجم عنه وفي هذا السياق ينبغي أن لا تكون أهواء المترجمين واختياراتهم العشوائية القائمة على تذوق خاص هي التي تحدد مسارات النمط المترجم من الأعمال الإبداعية تحديدا لأنهم كثيرا ما يفشلون في الاختيار ويفرضون على القراء نمطا فاشلا من النصوص يأتي بنتائج عكسية وينتج أدبا موازيا سلبيا يكون غريبا عن الأدب القومي في منطلقاته الأخلاقية والفنية فقط لأنه (صرعة) أو (موظة) تترك آثارها المدمرة على اللغة التي ترجم إليها النص إلى جانب أهمية الترجمة العكسية إلى الآداب الأخرى وان يكون هناك توازن معقول لئلا تؤدي كثرة الأعمال المترجمة إلى تشويه معالم اللغة والأدب المنتج بها والإضرار بخصوصيته وبالنسبة للأدب العربي يكون تعريبا وتعجيما لان من مصلحة الأمة الثقافية أن يترجم اكبر عدد ممكن من نتاجاتها الحضارية إلى العالم لتستطيع أن تقدم نفسها ثقافيا إليه لاسيما وإنها محجوزة بحواجز شاهقة تتمثل باللغة والانغلاق الحضاري الذي عرفت به في العصر الحديث تحديدا نتيجة لعوامل كثيرة يأتي في مقدمتها الاستعمار بشكليه القديم والحديث والأخير يتمثل بالهجمات الشرسة ضدها إعلاميا وفكريا وحتى عسكريا من خلال دعم قوى التخريب والتآمر عليها.**(40)**

وهكذا فان للترجمة أثرها الكبير في تشكيل ثقافة الكاتب ولغته طالما انه سيكس تأثره (لغويا وتكنيكيا) على ما ينتجه من نصوص,على إننا ألفنا طائفة من الكتاب المحدثين العرب يكتبون بالفرنسية أو بلغات أخرى وهو مر يجعل أساليبهم ونصوصهم المنتجة عربية الروح والملامح ,وتصبح ترجمتها أكثر قربا إلى حقيقة العمل الأدبي,وهذا يقودنا إلى النص المختزن لنصوص متنوعة كل مع ذاكرته اللغوية التي تظهر آثارها جلية لا في الكلمات الأجنبية وحسب بل في طرق التعاطي مع الأفكار والرؤى والتصرف باللغة.

3- الاتجاه الموضوعي للنص:

إنَ التقسيمات البدائية للرواية التي كانت ترى فيها(الموضوع أساسا منفصلا عن الشكل وتربطها بالفرار من الواقع وتصور الوقائع الخيالية وتكون الأهمية فيها للوقائع) جعلت الرواية تقسم موضوعيا إلى عدة أقسام تاريخية وتحليلية واجتماعية وذلك فيما يتعلق بالقصة المصرية التي كان لها فضل الريادة في الرواية العربية**(41)**ثم ألحقت بها بعد المرحلة الأولى التي تمثلت بأعمال هيكل(زينب)و(ما تراه العيون)لمحمود تيمور روايات التحليل النفسي لاسيما في أعمال العقاد والمازني**(42)** وإذا عدنا إلى الرؤية الحديثة لمفهوم المضمون الروائي وجدنا بعض النقاد من يقسم المضمون إلى كامن وظاهر على اعتبار أن الملفوظ الروائي مجالا لخطاب مزدوج احدهما ذو طبيعة خبرية ومفهومية صرفة والآخر ذو طبيعة سردية خاصة وتحليل المضمون يهتم فقط بالموضوعات والأفكار ويحرص على قراءة مابين السطور بحثا عن دلالة عميقة وعلى خلاف ذلك فان التحليل البنيوي يهتم بمنطق المحكي **(43)** ومع ظهور الرواية الجديدة تغيرت المفاهيم الفنية والبنائية ووجد القراء نمطا كان أن يكون جنسا جديدا ولعل أهم ما تتميز به الرواية الجديدة عن التقليدية إنها تثور على كل القواعد وتتنكر لكل الأصول وترفض القيم والجماليات التي كانت سائدة في الرواية التقليدية فلا الشخصيات ولا الأحداث ولا الحيز ولا الزمان والمكان ظلت كما هي وهناك من يحدد العوامل التي أفضت إلى تغير المفاهيم الأدبية وكانت مسؤولة عن خلق بيئة ومناخ تهيأت فيهما العوامل المناسبة لخلق النموذج الجديد ومن هذه العوامل الحرب العالمية الثانية وما رافقها من تغير أصاب شتى مجالات الحياة لاسيما المخترعات والتحولات الاقتصادية والفكرية المرتبطة بها ثم حرب تحرير الجزائر وأثرها على النقلات الهامة في الرواية الفرنسية والاهم من ذلك الكشف البشري الأهم المتمثل بالطاقة النووية وغزو الفضاء ونتاج ذلك كله على تعاطي الفكر البشري مع الحياة وقضاياها .(44)

ولاشك في أن انجازات رهط من الكتاب في القرن العشرين أسهمت إسهاما فاعلا في تغير كبير في الرؤية وروح الرواية الجديدة مثل فلوبير واندريه جيد وجيمس جويس في (اوليس) ووليم فوكنر ونتاج تيار الوعي الذي ظهر عند عدد من الروائيين ونقل الرواية نقله كبيرة**(45)**وتيار الوعي يمثل الثورة الحقيقية في تاريخ التطور الروائي وهو من نتاج القرن العشرين وأسرع ما تعرف به رواية تيار الوعي هو مضمونها لان ذلك ما يميزها وليس ألوان التكنيك فيها بغض النظر عن أهدافها وموضوعها وان روايات هذا التيار تعكس وعي الشخصيات الذي يخدم القارئ بوصفه شاشة للعرض **(46)**مع التأكيد على الواقعية وأهمية الدور الذي أدته حين نقلت الرواية من أجواء الغيبية والمثالية والأجواء الملحمية إلى عالم الواقع ووضعت اللبنة الأولى للرواية بمفهومها الحديث ,كما إن الرواية العربية استفادت من المنجز الواقعي فخطت خطوات كبيرة تمثلت في أعمال نجيب محفوظ ثم الواقعية الاشتراكية المتمثلة بأعمال عبد الرحمن الشرقاوي وغيره**(47)** كل تلك الأمور والمعطيات غيرت النظرة إلى الفن الروائي ونتج عن ذلك لغة جديدة لا في مفرداتها وتراكيبها بل لغة معبرة عن رؤية المؤلف تتسم بالعمق والمرونة التي تجعلها ممكنة الترجمة إلى اللغات المختلفة ,لغة اقرب إلى أن تكن لغة عالمية لان الأدب تحول لغة الحوار الجديدة بين الشعوب التي ملت لغة الصراع والحرب بعد حربين عالميتين طاحنتين وعشرات النزاعات الدموية فعبر الأدب المسافات وتجاوز الحدود ,وليس الأديب العربي ونتاجه بمنأى عن تلك التغيرات الخطيرة فظهرت نخبة من كتاب الرواية العربية الذين قامت ثقافتهم الأدبية على أسس المنجز الغربي في الرواية تحديدا ,ومع إن روايات الجيل الأول من هؤلاء قامت على التقليد إلا أنها وبالغم من نجاحها في نقل الشكل الجديد للرواية إلى القارئ العربي قد وقعت في خطأ التقليد الذي لم يكن ناجحا بسبب المسافة الواضحة بين المجتمعات الغربية والمجتمع العربي ونجت بعض الأعمال التي انقطعت ذهنيا ومعرفيا عن تبعية الرواية الغربية وكانت أنموذجا ناجحا للرواية العربية ومنها (عودة الروح لتوفيق الحكيم وقنديل

ام هاشم ليحيى حقي ودعاء الكروان لطه حسين)وبرز فيما بعد ثلاثة اتجاهات في الرواية العربية(المصرية على وجه الخصوص) تجاوزا إلى حد ما مشكلات التبعية الأدبية للنموذج الغربي سعى الاتجاه الأول إلى الاستفادة من منجزات الواقعية وتجاوز مشكلاتها مثل السطحية وتجاوز الذات كما نجد عند بهاء طاهر أبو المعاطي أبو النجا وغيرهم,فيما ومال الثاني إلى الاستعانة بالخبرة والإشكال التاريخية بطرق مختلفة على نحو ما نجد عند صنع الله إبراهيم وجمال الغيطاني,في حين اتجه الثالث إلى النهل من مخزون الخبرة الشعبية على شاكلة أعمال يحيى الطاهر وغيره,وان محتوى الشكل العربي الروائي عموما لايعني شكلا محددا بل دعوة لكسر نمطية الشكل الواحد وصولا إلى تنوع الثروة الجمالية وتنوع البيئات العربية ويشترط لنجاح تلك التجارب إخلاص الكاتب العربي لهويته وبيئته وعدم الانجرار وراء التقليد الأعمى وتجسيد الخصوصية والهوية. **(48)**

وبالتأكيد فان مسالة الخصوصية لا تعبر عن ارتباط الكاتب بالأمة وحسب بل تعبر عن وعيه بمهمة الأدب وأشكاله المتنوعة بقضاياها والتي تمثل التعبير الأرقى عن اللغة وخصوصيتها وإمكاناتها في مسايرة النقلات الكبيرة التي حدثت للأدب عموما والرواية على وجه الخصوص في العالم واستيعابها للتكنيكات الجديدة والتجريب الذي يمثل روح الأدب الحديث الحقيقية,ولا ينجح ذلك بان يكون على حساب اللغة وهويتها لكي لا تخرج الرواية عن أن تكون شكلا لغويا لا أن تكون اللغة شكلا روائيا لان الرواية هي التي تنهل من اللغة وتنجح تلك الرواية بالقدر الذي تكون فيه اللغة متحركة ومسايرة في حركتها للتغيرات السريعة في الحياة.

ثالثا/الرواية العربية بين الحداثة ومأزق التغريب

الحداثة بأبسط مفاهيمها الإتيان بشيء لم يؤت مثله ويتحرر من أسار النقل والمحاكاة والاقتباس وقد تتمثل بالأسلوب أو المضمون أو معا فيكون

صاحبها مبدعا**(49)**وأيا كانت المرجعية التي تقف وراء الحداثة فان عوامل ظهورها معروفة وهي مرتبطة بالواقع الجديد الذي أنتج معاييرا وأدبا جديدا سرعان ما تسلل إلى المكتوب الأدبي والنقدي,وهي تنفصل عن مفهوم التجديد والمعاصرة وهو أمر اتفق عليه النقاد المعاصرون وقد استقلت عن حدود الوقت والمفاهيم الزمنية لتصبح شمولية كلية يتساوى فيها الماضي والحاضر ذلك إن لكل عقد حداثته فحداثة الخمسينيات غير حداثة الثمانينات مثلا تبعا للمتغيرات المتنوعة **(50)**وهي أداة للإبداع والرؤى المبتكرة ولا شان لها بالمضمون ولا علاقة لها بالعصر الحديث والجديد مما يؤكد تجردها من السمة الزمنية ,وقد كان أول ظهور لها في كتاب نشر باللغة الانكليزية عام 1927 لكريفز ورايدنج A survey of Modernist Poetry)) وكانت فيه تعني نظرة محايدة موضوعية للفن كتعبير أو كأسلوب في استخدام اللغة ودرجة من الغموض تفوق توقعات القارئ العادي**(51)**وما بين الحداثة والتغريب لا توجد علاقة حقيقية إلا أنهما تداخلا في الفهم العربي في الكثير من النتاجات الأدبية العربية لاسيما الروائية منها والذي يظهر فيها بصورتين :

الأولى:نتاجات تختلط فيها العربية بلغات أخرى من خلال المصطلحات وبعض الحوارات والعبارات لاسيما الفرنسية,إلى جانب اللهجات العامية المتنوعة .

الثانية:نتاجات مكتوبة بلغات أجنبية كالفرنسية والانكليزية كتبها روائيون عرب نكهتها وأجوائها عربية وترجمت إلى العربية.

وبالتأكيد فان ثقافة الكاتب لها دور أساسي في هذا الأمر وليس عيبا أن يكتب روائي عربي بلغة أخرى ويترجم لكن العيب أن يكتب بمعايير الآخرين ويترجم ما كتبه ويجعل نفسه محسوبا على الأدب العربي ,وان ينقل تأثره بالآداب الأخرى واللغات التي يتقنها إلى ما يكتبه بلغته الأم ,وطالما أن الأديب شاعرا كان أم كاتبا يمثل قدوة قراءه فتقع على عاتقه مسؤولية كبيرة في كل ما يكتب لاسيما إن كان ناجحا ,ونظرة بسيطة إلى الأعمال الروائية العربية الحديثة تؤكد وجود خلل في طبيعة تعامل الروائيين مع اللغة العربية التي ينتمون إليها واللغة التي

يكتبون بها وكتاب الفرانكفونية مثال واضح لذلك فالكتاب الفرانكفونيون العرب يتمثلون وهم يكتبون بالفرنسية الفكر الفرنسي والمجتمع الفرنسي أكثر مما يتمثلون المجتمع العربي لان اللغة لها اثر في الفن كما إن لها اثر في الفكر**(52)**هذا مع جميع المكاسب التي يفترضها أنصار الفرانكفونية والمساوئ التي يراها خصومها إلا إن القول بعدم وجود تأثير سلبي على اللغة العربية هو أمر مجحف ,واللغة الفرنسية إنما فرضت قوتها وسيطرتها الثقافية انطلاقا من قوة فرنسا الاستعمارية وحتى ظهورها كان لأسباب سياسية لتقف في وجه الزحف الكبير للأمريكية/الانكلوسكسونية وساعدت سلاستها وحيويتها على استيعابها للثقافات والأفكار المتنوعة في كل مكان دخلت إليه,وقد خلقت مسالة الأدب المكتوب باللغة الفرنسية أزمة في الهوية الثقافية لاسيما بين الكتاب الجزائريين وهناك من رأى إن عقدة الفرانكفونية هي السبب وهي شرخ تاريخي كانت له نتائجه المرة على الأقلام العربية في الجزائر بل إنهم يقرون إن الأدب الفرانكفوني سيبقى مادام هناك قراء**(53)**وقد يكون الأمر مفهوما بحكم الحالة الجزائرية التي كانت الفرنسية فيها قدرا محتوما بل ولازالت بعد أن تحولت إلى قدر اختياري مع الاعتبار لكل المساحة الفسيحة التي وضعتها الفرنسية أمام الكتاب الجزائريين ومنهم واسيني الأعرج الذي قال إن الفرنسية التي كتب بها واشتهرت بها أعماله الأولى أخرجته من الصمت والجنون ذلك لأنها حين كتبت بالعربية لم تجد ناشرا يحرجها إلى النور إلا انه يؤكد جانبا مشرقا في هذه التجربة وهي إن الصبغة التي قدمها الغرب والمتمثلة بالرواية العربية المكتوبة بالفرنسية إلا أن اللغة الفرنسية أخذت هوية بديلة وهي الرواية العربية والجزائرية تحديدا وهي بنظره تثري اللغة التي كتبت بها لا بل انه يعدها لغة منقذة ويسرد تأثير روايات جزائرية في الأدب واللغة الفرنسية من خلال خلق نسق الحكي والقص غير التقليدي والشخصيات والموضوعات والزمان الافتراضي فيها كما في تجارب محمد ديب وكاتب ياسين ورشيد بوجدره والأدب المكتوب بلغة يتجلى ياخرى على نحو ما نراه من تأثير مالك حداد في أحلام

مستغانمي ونسقها الشاعري في رواياتها لاسيما الثلاثية المشهورة (ذاكرة الجسد وفوضى الحواس وعابر سرير)**(54)** ومع كل الايجابيات التي يشير إليها الأعرج من تأثير واضح للرواية العربية المكتوبة بالفرنسية إلا إن إشكالية الهوية التي يطرحها هذا الرأي تضع الرواية في مفترق طرق صعب,إذ أن الاهتمام بالإبداع الأدبي المكتوب باللغة العربية لا يكاد يلتفت إليه الكتاب ومؤرخي الأدب في شمال المتوسط بل وحتى من قبل الأدباء والنقاد الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية ولا يمجدون أو يذكرون سوى الأقلام التي تكتب بالفرنسية مثل محمد ديب وكاتب ياسين ومالك حداد إلى جانب مولود فرعون ورشيد ميموني واسيا جبار وغيرهم,وهو الأمر الذي أكد للجزائريين أنفسهم إن الأدب الجزائري يعيش حالة من الازدواجية المعقدة التي شطرته إلى أدب مكتوب بالعربية يقدم للمشرق العربي وآخر مكتوب بالفرنسية يقدم لأوربا!! مع إن الأدب الجزائر المكتوب بالعربية قد ظهر على أيدي الطاهر وطار وعبد الحميد بن هدوقة وبوجدرة وغيرهم بعد الاستقلال **(55)** وليس الأمر متعلقا بلغة غير أخرى وليست الفرنسية وحدها المتفردة بهذه السمات التي تدفع إلى الكتابة بها والترويج لها وتقدير الأدب المكتوب بها لان العربية على سبيل المثال فيها من السمات الإبداعية والحيوية ما يؤهلها لتصبح لغة عالمية وهي كغيرها من اللغات الحية أكانت لتبقى لو لم تتوافر فيها عناصر البقاء والديمومة ولا ننسى أنها لغة الحضارة التي قدمها الإسلام إل العالم وكانت وسيطا حضاريا بين أوربا والثقافة اليونانية القديمة,ولولا العوامل (السياسية)المرتبطة بالاستعمار والهيمنة الفكرية التي فرضت الفرنسية في دول كالجزائر مثلا لما اكتسبت الفرنسية هذا القدر المبالغ فيه من الاهتمام والتقديس, والأمر نفسه ينطبق على أكثر الآداب الإفريقية والجزر الفرنسية هنا وهناك.

ومع إن هناك من يرى في ذلك انفتاحا على الآخر بما يتضمنه هذا الانفتاح من انفتاح يتجاوز حدود اللغة والأدب والفكر عموما إلا انه يصبح استلابا إذا تم من غير أسس ولا قواعد تحفظ خصوصية الأنا الحضارية ,ودعاة الحداثة ليسوا

ببعيدين ذلك مع إنهم كما يصفهم الغذامي أناس تتحرك في نفوسهم الفرة البشرية فيحسون بنقصهم وقصورهم ولا يجدون أمامهم الجواب الكاف الشافي فينطلقون للبحث عنه,في حين إن المعارضون يأبون على أنفسهم الحلي بهذه الفطرة وهو يقف موقفا مناوئا من أعدائها ويصفهم بالقصور المعرفي والثقافي وفقدان الرؤية النقدية السليمة وعدم الفهم لفلسفة التجديد وضيق حدود نظرتهم إلى اللغة متعللا بان الأخذ من غيرنا لا يغض قيمتنا فأسلافنا اخذوا من شتى الأمم لأنهم أصحاب عقول متفتحة **(56)** غير أن واقع الحال ليس بهذه البساطة لأنه لا يضع الحدود الكافية والآمنة التي تقي اللغة تحمي خصوصيتها الحضارية,إن هناك دائما نقطا وسطا بين الأخذ والعطاء بمعايير إبداعية إذا اختلت لصالح الأخذ انتهت اللغة وأدبها إلى الاستلاب والاضمحلال وإذا جنحت إلى العطاء فإنها بذلك تكون قد عكست درجة الرقي والتطور الذي وصلت إليه.

الهوامش

1- الأدب والأنواع الأدبية/125.
2- المعجم الأدبي/128.
3- معجم المصطلحات الأدبية/103.
4- اللغة العربية كائن حي-74.
5- الأدب والأنواع الأدبية/20-21.
6- نفسه/34.
7- النقد والتحليل الأدبي العربي الجديد /5-6.
8- دراسات في الأدب الحديث ومدارسه/144.
9- اللغة في رواية تجليات الروح لمحمد نصار/104.
10- في نظرية الرواية/102.
11- نفسه/95.
12- الرواية-مدخل إلى المناهج والتقنيات المعاصرة للتحليل الأدبي/89.
13- الأدب والأنواع الأدبية/127.
14- النقد والتحليل الأدبي العربي الجديد/241.
15- في نظرية الرواية/100.
16- نفسه/112.
17- الأسلوبية وتحليل الخطاب/107.
18- النقد والتحليل الأدبي العربي الجديد/391.

19- بلاغة الخطاب وعلم النص/270.
20- نفسه/271.
21- في الرواية العربية المعاصرة/138.
22- البيان والتبيين/144.
23- في نظرية الرواية/104 .
24- في نظرية الرواية/112.
25- ينظر على سبيل المثال دراسة بعنوان الرواية العربية والحضارة الأوربية/38.
26- الراوي الموقع والشكل/10.
27- الأدب والأنواع الأدبية/206.
28- نفسه/107-108.
29- النقد والتحليل الأدبي العربي الجديد/224.
30- النص والأسلوبية/74-75.
31- تحريفات العامية/5.
32- مشكلات اللغة العربية/178.
33- الرواية-مدخل إلى المناهج والتقنيات المعاصرة للتحليل الأدبي/39.
34- نفسه/72.
35- في نظرية الرواية/104-106.
36- النقد والتحليل الأدبي العربي الجديد/72.
37- من تاريخ الترجمة عند العرب/147.
38- اللسانيات والترجمة-مجلة الآداب الأجنبية/39.
39- الترجمة الأدبية بين النظرية والتطبيق/75-77.
40- هجرة النصوص دراسات في الترجمة الأدبية والتبادل الثقافي/22,19.
41- دراسات في الأدب الحديث ومدارسه/433,445.
42- الأدب العربي المعاصر-د.شوقي ضيف/210.
43- النص الروائي تقنيات ومناهج/85.
44- في نظرية الرواية/48-55.
45- نفسه/60.
46- تيار الوعي في الرواية الحديثة/16.
47- قضايا النقد الحديث/77.
48- الأنواع النثرية في الأدب العربي المعاصر/16-18.
49- المعجم الأدبي/92.
50- تشريح النص/9-11.
51- الحداثة وما بعد الحداثة/20.
52- الفرانكفونية منفى اللغة وصراع الثقافات-سعد محمد رحيم-الحوار المتمدن/2.

53- مصير الأدب المكتوب باللغة الفرنسية من المشرق إلى المغرب-الأدب الفرانكفوني لن يختفي مادام هناك قراء-نبيلة.س-الجزائر نيوز1-10-2011.
54- واسيني الأعرج-أجراس من ذهب – بو بكر سكيني-لقاء معه على منتديات ستار تايمز.
55- مقدمة أولى للنص الأدبي الجزائري-عمر بو شموخة-الجزائر نيوز-28 مارس 2011.
56- الموقف من الحداثة ومسائل أخرى/56,19.

المصادر

1- الأدب والأنواع الأدبية- نخبة من الأساتذة-ترجمة طاهر حجار-دار طلاس للنشر-ط1-دمشق-1985.

2- الأسلوبية وتحليل الحطاب-د.منذر عياشي-مركز الإنماء الحضاري-ط1-2002.

3- الأنـواع النثريـة فـي الأدب العربـي المعاصـر-د.سـيد البحـراوي-كتـب عربية.com.
4- بلاغـة الخطـاب وعلـم الـنص-د.صـلاح فضـل-سلسـلة عـالم المعرفـة إصـدار رقم164-الكويت-1992.
5- البيان والتبيين-الجاحظ:أبو عثمان عمرو بن بحر(ت255هـ)-مكتبة الخـانجي-مصر-1960.
6- تحريفات العامية في القواعد والبنيات والحروف وللحركات-د.شوقي ضيف-دار المعارف-مصر.
7- تشريح النص- د.عبد الله الغذامي-المركز الثقافي العربي- ط2-الدار البيضاء-2006.
8- تيار الوعي في الرواية الحديثة-روبرت همفري-ترجمة:د.محمود الربيعي-مكتبة الشباب-مصر-1984.
9- الحداثة وما بعد الحداثة- بيتر بروكر-ترجمة:د.عبد الوهاب علوب-منشورات المجمع الثقافي-ط1- أبو ظبي-1995.
10- دراسـات فـي الأدب العربـي الحـديث ومدارسـه- د.محمـد عبـد المـنعم خفاجي- دار الجيل-ط 1- بيروت-1992.
11- الـراوي الموقـع والشـكل-يمنـى العيـد-مؤسسـة الأبحـاث العربيـة-ط1-بيروت-1986.
12- الرواية-مدخل إلى المناهج والتقنيات المعاصرة للتحليل الأدبي-برنـار فاليت-ترجمة:عبد الحميد بورايو-سلسلة آداب-دار الحكمة.
13- الروايـة العربيـة والحضـارة الأوربيـة-شـجاع مسـلم العـاني-سلسـلة الموسوعة الصغيرة رقم 31-وزارة الثقافة والفنون-بغداد-1979.
14- في الرواية العربية المعاصرة-فاروق عبد القادر-كتب عربية.com.
15- في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد-د.عبد الملك مرتاض-سلسلة عالم المعرفة رقم الكتاب 240-الكويت-1990.

16- قضـايا النقـد الحـديث-محمـد صـايل حمـدان- دار الأمـل-ط1-الأردن-1991.
17- اللغة العربية كان حي-جرجي زيدان- دار الجيل-ط2-بيروت-1988.
18- مشكلات اللغة العربية-محمود تيمور-مكتبة الآداب-مصر.
19- المعجـم الأدبـي-جبـور عبـد النـور-دار العلـم للملايـين-ط2-بيـروت-1984.
20- معجـم المصـطلحات الأدبيـة المعاصـرة- د.سـعيد علـوش- دار الكتـاب اللبناني-ط1- بيروت-1985.
21- الموقف من الحداثة ومسائل- د.عبد الله الغذامي- ط2-1991.
22- النص الروائي-تقنيات ومناهج=بيرنـار فاليت-ترجمة:د.بشير بنحدو-منشورات ناثان-باريس-1992.
23- النص والأسلوبية-بين النظرية والتطبيق-عدنان بن ذريل-اتحاد الكتاب العرب-دمشق-2000.
24- النقد والتحليل الأدبـي العربـي الجديـد فـي القصـة والروايـة والسـرد-د.عبد الله أبو هيف- منشورات اتحاد الكتاب العرب-دمشق=2000.
25- هجرة النصوص دراسات في الترجمة الأدبية والتبادل الثقافي- د.عبده عبود- منشورات اتحاد الكتاب العرب-دمشق-1995.

<u>البحوث والمقالات</u>

1- الفرانكفونية منفى اللغة وصراع الثقافات-سعد محمد رحيم-الحوار المتمدن-العدد 3394-2011/6/12.
2- اللسانيات والترجمة- ا.عمر لحسن- مجلة الآداب الأجنبية-العدد 135-دمشق-2005.
3- اللغة في رواية تجليات الروح للكاتب محمد نصار-د.عبد الرحيم حمدان-مجلة الجامعة الإسلامية- المجلد16-العدد2-غزة- 2008.

4- مصـير الأدب المكتـوب باللغـة الفرنسـية مـن المشـرق إلـى المغـرب-الأدب الفرانكفوني لن يختفي مادام هناك قراء-نبيلة.س-الجزائر نيوز 1-10-2011.
5- مقدمـة أولـى للـنص الأدبـي الجزائـري-عمـر بـو شـموخة-الجزائـر نيـوز-28 مارس.
6- واسيني الأعرج-أجراس من ذهب - بوبكر سكيني-لقاء معه على منتديات ستار تايمز.